الفصل السادس

مأساة فى الأراضى المنخفضة

١٦٤٩ — ١٧١٥ *

شهد القرن الممتد من ١٥٥٥ إلى ١٦٤٨ الدفاع البطولى الذى قامت به الأراضى المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية ، أما الفترة من ١٦٤٨ إلى ١٧١٥ فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترة وجيوش فرنسا التى لم يسبق لهامثيل . وفى كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوءا مكاناً مرموقاً فى التاريخ . وقد واصلت وسط هذه الأعباء والهجمات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون ، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد ، وتحدت نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً .

١ ـ الأراضى المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضى المنخفضة الجنوبية ، أو الأسبانية ، حتى ١٧١٣ خاضعة للحكم الأسبانى وكانت شعوبها المختلفة سلالياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد آثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التى حل بها الضعف ، إعن أن تخضع للبروتستنت الذين فى شمالها ، أو لجارتها فرنسا التى هددت بابتلاعها فى أى لحظة . وقد أعطى صلح البرانس (١٦٥٩) معظم أرتوا لفرنسا ، وأعطاها صلح إكس لا شابل (١٦٦٨) دوبه وتورنيه ، وصلح نيميجن (١٦٧٨) فالنسين وموبوج وكمبرى وسانت أومير وايبر . ولم تكن الجمهورية

(*) أرجأنا تاريخ الأراضى المنخفضه السياسى والحربى بعد ١٦٨٨ إلى فصل تال (الفصل ٢٤) .

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية . وبمقتضى معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) لم تكتف أسبانيا ، فى حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا — لم تكتف بأن تنزل الأقاليم المتحدة عن المناطق التى استولت عليها فى فلاندر ، وليمبورج ، وبرابانت ، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت فى وجه التجارة الأجنبية . فأصاب هذا الإذلال الخانق أنتورب وكل اقتصاد الأراضى المنخفضة الأسبانية بالشلل . « إن السياسة لا قلب لها » كما يقولون .

وفى داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التى نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة ، ورحبت باليسوعيين ، وتبعت قيادة لوفان الفكرية . ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (١٦٩٥) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا ، ودمر كل المعمار البديع الذى ازدان به الميدان الكبير ، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفيل البديع ، وقد أعيد بناء « الميزون دورا » (الذى كان يقرأ فيه الخطاب الملكى على مجلس الطبقات) بطراز قوطى كثير الزخرف (١٦٩٦) ، وهو والأوتيل دفيل من أجمل العمائر فى أوربا اليوم . وقد أفاض النحاتون من فنهم على تجميل واجهات الكنائس والمبانى المدنية ، والمنابر ، ومقاصير الاعتراف ، والمقابر التى بداخل الكنائس . وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع(١) .

واضمحل التصوير الفلمنكى اضمحلالا حادا بعد روبنز وفانديك ، وكأن حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقرية التصويرية لقرن كامل . واجتذب نهوض الفن فى فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين . ولكن فنانا اعظم منه ، وهو افيد تنييه الابن ، مكث فى بلده . وكان أبوه قد تولى تعليمه ، فأصبح « معلما » فى طائفة القديس لوقا الحرفية حين بلغ الثالثة والعشرين ، وبعد أربع سنوات (١٦٣٧) ضمن نجاحه بالزواج من آن بنت جان بروجل « الخملى » ،

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبنزذاته . وفى ١٦٥١ دعاه الارشيدوق ليوبولد وليم من أنتورب الى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكى ، وترينا احدى لوحات تنييه الأشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف (٢) . وقد صور فى براعة متددة موضوعات قديمة كالابن الضال (٣) وتجربة القديس انطونيوس . (٤) . ولكنه كمعاصريه الهولنديين آثر أن يلتقط داخل اطارات صغيرة حياة الفلاحين ، لاهابطابهم الى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجل ، بل مشاركا اياهم فى رياضاتهم وأعيادهم . وأظهرت لوحته « داخل كاباريه » الممه بتفاصيل موضوعه (٥) ، ولكنه كان يستطيع أيضا أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التى تغيرهيئتهاسماء لاتكف عن التغير . وقد أحب الضوء كما أحب رمبرانت الظل ، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفقها رقة .

٢ — الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن فى جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها ونوسعها عجب جيرانها وحسدهم . فهنا أمة شذت على العرف ، إذ لم يكن لها ملك ، وكانت كل مدينة يحكمها فى استقلال تقريبا مجلس من أعيانها ، وكل مجلس بلدى يوفد مندوبين لمجلس اقليمى ، وكل مجلس اقليمى يوفدممثلين للمجلس التشريعى الذى يهيمن على مابين الأقاليم من علاقات وعلى شئونها الخارجية . وكانت الى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية . ولكن قوة ارستقراطية واحدة وقفت أمام أولجركيه التجار هذه : ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو ، الذى قاد البلاد فى أحلك ايام كفاحهاضد أسبانيا ، وكان المجلس التشريعى قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها ، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة ، وكانت الهيمنة على رجال الجيش الآن قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الاولجركية الى ملكية

ارستقراطية . وفى يوليو ١٦٥٠ حاول وليم الثالث أمير أورنج ، بوصفه رئيسا للدولة وقائدا عاما ، أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب . فقاومه عدة زعماء اقليميين ، واودع وليم وجندى ستة منهم فى السجون ، ومنهم يعقوب دى ويت عمدة دوردريشت . ولكن الجدرى هزم وليم فى انتصاره ، فمات فى ٦ نوفمبر ١٦٥٠ غير متجاوز الرابعة والعشرين : وبعد أسبوع ولدت أرملته مارى ستيوارت (ابنة حفيدة آخر ملكة للاسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث ، الذى قدر له أن يحقق فوق ماحلم به أبوه ، اذ أصبح ملكا على انجلترة .

اما الزراع وصيادو الاسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتناقسة ، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب ، فلم يشاركوا الا فى فضلات ثرائها التى لم يعبأ بالتهامها التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض . واذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الفلاحين بفقر كاد يقربهم من حياة البهائم ، فقر خففت منه الأعياد وخدره الشراب . وكان الحرفيون فى حوانيتهم ، والعمال فى مصانع امستردام وهارلم وليدن ، أعلى أجورا من نظرائهم فى انجلترة (٦) ، ولكنهم قاموا باضراب عنيف فى ١٦٧٢ . واثرى المهاجرون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم . فلم تأت سنة ١٧٠٠ حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الامة الصناعية القائدة فى العالم .

اما اعظم الثروات فجادت بها التجارة مع أقطار ما وراء البحار وتطويرها . ففى ١٦٥٢ استوطن الهولنديون أول مستعمرة لهم فى رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة الكاب . وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع ارباحا لمساهميها بلغت نسبتها فى الموسط ١٨ ٪ طوال ١٩٨ عاما (٧) . وكان الوطنيون فى المستعمرات الهولندية يبيعون او يشترون عبيدا ، أما المستثمرون فى أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا الا قليلا ، وأخذوا ارباح أسهمهم بهدوء هولندى . وظلت التجارة

الخارجية الهولندية حتى ١٧٤٠ تفوق تجارة أى أمة أخرى (٨) ، ومن بين عشرين الف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا فى ١٦٦٥ ، كانت خمسة عشر ألف هولندية (٩) . وأجمع الناس على أن تجار هولندة وماليها أكفأ من انجبه ذلك العصر . وكان بنك أمستردام قد استنبط حمليا كل تقنيات المالية العصرية ، وقدرت ودائعه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (١٠) ، وكان فى الامكان أن تسوى فيه حسابات تصل الى الملايين فى ساعة واحدة ، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وامكان الاعتماد عليهم مبلغا يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أى حكومة أخرى ، وقد تهبط الفائدة أحيانا الى ٤ ٪ (١١). ولعل أمستردام كانت أكثر مدن اوربا فى هذا العصر جمالا وتحضرا . وقد رأينا ثناء ديكارت عليها ، وكذلك تحدث عنها سبينوزا (١٢) . ويمثل هذه الحماسة تحدث بيبيس عن لاهاى « مدينة غاية فى النظافة من جميع الوجوه ، بيوتها أنظف مايستطاع فى كل أماكنها ومحتوياتها (١٣) » .

ولولا طبيعة البشر لكانت هذه الأقاليم الرخية جنة فى الأرض ذلك أن ثراءها أغرى انجلترة وفرنسا بالهجوم عليها ، وقد أفضى الصراع على السلطة فى الداخل الى مأساة جان دى ويت ، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينيا شعبا لطيفا فى غير هذا ، وبعثت الخصومات العنيفة . ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حيثما استطاعوا منعها . و فى ١٦٨٢ ، وضع مجمع دورت (الدوردريشت) اعترافا بالكلفنية القديمة — ربما انتقاما من الغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والا طرد ، وعين بيير جوريو وهو هيجونوتى فرنسى سابق — ليرأس محكمه تفتيش كلفنيه ، واستدعى المهرطقين ، وحاكمهم ، وحرمهم ، واهاب بـ « الذراع الدنيوية » (السلطه الزمنيه) أن تزج بهم فى السجون . ولكن هرطقه أرمينيوس تمت رغم ذلك ، واجترأ الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الكثرة من بنى البشر الهلاك فى النار

الأبدية ، ووجدت المذاهب المنشقة — مينونيين ، وكلفين (ممن آووا سبينوزا) ولو سيانيين ، وتقوبين ، وحتى التوحيديين — هؤلاء جميعا وجدوا أن فى إمكانهم العيش فى هولندة بين ثغرات القانون وغفواته . وكان السوسينيون قد التمسوا فى الاقاليم المتحدة ملاذا من الاضطهاد فى هولندة ، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندة فى ١٦٥٣ . ونشر دانيال زفيكر بأمستردام فى ١٦٥٨ رساله تشككت فى ألوهيه المسيح ، وأخضعت الكتاب المقدس لـ « عقل البشرية العام » ؛ ومع ذلك استطاع أن يموت فى هدوء وسلام كما يموت الجزالات . على أن رجلا يدعى كيرباج حكم عليه فى ١٦٦٨ بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهذه ، ومات فى سجنه . وقد سجن أوريان بيفرلاند لإلماعه الى أن خطيئه آدم وحواء الأصليه كانت الاتصال الجنسى ولم تمت للتفاح بسبب .

وازداد التسامح الدينى قرب ختام القرن السابع عشر . ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة ، ويفتحون موانيهم وسوقهم الماليه لتجار يدينون بديانات كثيرة أو لا يدينون بأى دين ، هؤلاء الهولنديون وجـــدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضربا من التسامح كان ، رغم ما شابه من نقص ، أرحب بكثير منه فى أى بلد مسيحى . ومع أن الكلفنيين كانوا الغالبين سياسيا ، الا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغا جعل قمعهم امرا غير ممكن عمليا . أضف الى ذلك أن السيطرة الاجتماعيه والسياسيه التى كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس — كما قال السر وليم تمبل — أقل نفوذا بكثير من الاكليروس فى الدول الأخرى . وطالب المهاجرون من أقطار أخرى ، الذين أسهموا بقسط فى الاقتصاد أو الثقافة ، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به . وحين استولى كرومويل على السلطه فى انجلترة التمس أنصار الملكية فيها السلامة فى هولندة ؛ ولما رد تشارلز الثـــانى الى العرش ، التجأ الجمهوريون الانجليز الى الجمهورية الهولندية . ولما اضطهد لويس الرابع عشر الهيجونوت فر بعضهم الى الأقاليم

المتحدة ، ولما خشى لوك وكولنز وبيل الاضطهاد فى انجلترة أو فرنسا ، وجدوا الملاذ فى هولنده ؛ ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالى (اليهودى) سبينوزا ، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون ، ورتب له جان دى ويت معاشا . وأصبحت هولندة الصغيرة « مدرسة أوربا (١٥) » فى التجارة والمال والعلم والفلسفة .

ولولا ما أتيح لهذه الحضارة من حرية دينية ، ومن علم وأدب وفن ، لأصبحت حضارة مادية الى حد محزن . وسنلتقى فى فصل لاحق بهويجنس وغيره عن العلماء الهولنديين . وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون ، ولكن لغتهم حدت من شهرتهم . وقد حفلت المدن الهولندية بالكتب والناشرين . وبينما لم يكن فى انجلترة سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن وا كسفورد ، وفى فرنسا باريس وليون ، كان فى الاقاليم المتحدة مراكز فى أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاى ، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والالمانية والانجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية . وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمائة دار تطبع الكتب وتنشرها وتبيعها (١٦) .

ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى . وتمتع سا كنو المدن الهولنديون ، الذين عروا كنائسهم البروتستانتية من الزخرف ، خلعوا على نسائهم وبيوتهم الزينه التى انتزعوها من بيوت الرب . فاسترضوا زوجاتهم بالمخمل والحرير والجواهر ، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضه ، وزينوا جدرانهم بالنسيج المرسوم ، ورفوفهم أوصواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور . وفى ديفات كان الخزافون الهولنديون بعد عام ١٦٥٠ ، الذين استوحوا الخزف الصينى واليابانى ، يصنعون فخارا مزججا : أكثره أزرق على قاعدة بيضاء ، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عاريه عرى التزمت الصارم . وقل أن وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

الصغيرة التى جعلت حلم المسكن الهادىء النظيف ، وبهجة الأشجار والأزهار والجداول ، قريبى المنال على جدران البيوت .

٣ ـ ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولى للتصوير الهولندى قد ولى . فالزبائن الجدد اكثر نفرا ولكنهم أقل مالا ، لذلك طلبوا صورا صغيرة تتيح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية فى خلاصة مقطرة مهذبة ، منقولة بواقعية تبعث لذة التعرف ، أو ملموسة بعاطفة رقيقة ولكنها مالوفة ، أو مغريه للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة . وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب فى رهافة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق فى حيز صغير . وهؤلاء الفنانون معروفون فى جميع أرجاء أوربا وأمريكا ، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلا متدفقا سريعا من الصور الصغيرة بثمن رخيص ، وهى صور لا تخلو اليوم منها جدران متحف . ونحن اذ نترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لهامش سريع (*) ، نراه لزاما أن ننظر نظرة أكثر تريثا الى جان ستين ، المرح رغم حظه العاثر ، والى أعظم مصورى الحياة اليومية جان فرمير ، والى أعظم مصورى الطبيعة الهولنديين ، يعقوب فان رويسدال .

---

* نيتولا بيرشيم : الظلمة فى الغابة (درسدن) فرديناند بول : يعقوب أمام فرعون (درسدن) ، جيرارد دو : عجوز فى النافذة (فينا) . بارنت فابريتوس : يعقوب وبنيامين (شيكاغو) . بارتلميوس فان درهيلست : عمدة هولندى ، (نيويورك) بييتردى هوخ : داخل بيت هولندى (لندن) . فيليب دى كونينك : منظر طبيعى (فرانكفورت) . نيقولا ماييس : عجوز تغزل (استردام) . جابرييل ميتسو : سوق الخضر (لندن) . فرانس فان ميريس الأول : صورة ذاتية مع زوجته (لاهاى) . وليم فان ميريس : التعرف على برسبورا (درسدن) . ابرت فان درنير : منظر مقمر (برلين) . جيرار تربورش : عشاق الموسيقى (لندن) ادريان فان درفلد : المزرعة (برلين) . وليم فان درفلد الثانى . زويدرزى (برلين) جان فينكس الثانى : منظر صيد (لندن) . أدريان فان درفرف : طرد هاجر (درسدن) . فيليب فوفرمان : وقفة جماعة صيد (دولسفش) .

أما ستين فكان ابن صانع جعة فى ليدن ؛ واشتغل فى لاهاى ، وديلفت ، وهارلم ، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة فى ليدن ؛ وخلال هذه الفترات استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور الأشخاص فى الفن الهولندى باستثناء رمبرانت . وحين بلغ الثالثة والعشرين (١٦٤٩) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جوين ؛ ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها ، ولكنهما أفاداه بعض الوقت نموذجين ملهمين . وكان ينقد أجرا حقيرا على صوره حتى أن صيدليا حجز (١٦٧٠) على كل الصور التى استطاع أن يجدها فى بيت ستين وباعها بالمزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدينات . وصوره الأولى تسجل لذات السكر او عقوباتة . وصورته « الحيـــاة المنحلة (١٧) » ، وهى مثال ممتاز من صوره ، فيها امرأة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب ، وطفل ينتهز الفرصة فيسرق من صوان ، وكلب يأكل من المائدة ، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانه فى عظة عن خطيئة شرب الروم ، وكل شىء فى الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى . وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة فى صورة أخرى له أسيئت تسميتها بـ « معرض الوحوش (١٨) » ، يرى فيها فتـاة صغيرة تطعم حملا باللبن ، ودجاج الحديقة يثب هنا وهناك ، وطاووس يدلى ذيله من شجرة ذابله ، والحمام يحط فى أعلاها ، ويمامة تحلق قادمة من الطريق . هذا كله لحن رعوى يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لامعنى لها . انه الحياة ، وكل جزء له مبرره الكافى الذى يتجاهل المطلقات .

وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية : باطن بيوت مبهجة ، ودروس موسيقى ، وحفلات موسيقى ، ومهرجانات ، وأسر سعيدة ، والفنان نفسه ، يدخن فى « الصحبة المرحـة (١٩) » ، أو يعزف على العود (٢٠) . فلما فتت فى عضده الأجور البخسة التى نقدها على عمله ، عاد الى بيع الجعة ، وراح يشرب لينسى ، ثم مات فى الثالثة والخمسين مخلفا أربعمائة صورة بائرة .

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا و سمها « رأس فتاة »(٢١) تكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه . وهذه اللؤلؤة التى يفوق ثمنها اللالىء بيعت بالمزاد عام ١٨٨٢ بجولدنين ونصف ، ويقدر ناقد قدير فى أيامنا هذه أنها « واحدة من اثنتى عشرة صورة هى أروع صور العالم (٢٢) » وواضح أن الفتاة من بيت طيب وأسرة كريمة ، عيناها خاليتان من الخوف ، لا يغشاهما حتى دهش الشباب الطبيعى ، فهى سعيدة فى هدوء ، متيقظة لموسيقى الحياة ؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة فى اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف .

وقد ولد فرمير فى ديلفت عام ١٦٣٢ ؛ وعاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (١٦٧٥) بالغاً الثالثة والأربعين ، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماما (١٦٣٢ — ٧٧) . تزوج فى العشرين، وأنجب ثمانية أطفال ، وكان يتقاضى ثمنا طيبا على صوره ، ولكنه عكف عليها فى عناية مستنفدة للوقت ، وأنفق المال الكثير على شراء الصور ، حتى إنه مات مدينا ، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التفاليس . غير أن الأربع والثلاثين صورة التى بقيت من صوره توحى بجو من رفاهية الطبقة الوسطى . وتظهره إحداها(٢٣) فى رسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة ، « وجركنة » متعددة الألوان ، وجوارب طويلة متجعدة ولكنها حريرية ، وقد انتفخ ردفاه من النعمة . ولا ريب فى أنه سكن حياً راقياً فى ديلفت ، ربما فى مشارفها حيث استطاع أن يلقى « نظرة على ديلفت (٢٤) » وفى هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجم لموطنه . ويبدو أنه راض نفسه على البقاء فى بيته بقناعة أكثر مما نلحظه فى مصورى زماننا . لحب البيت يتجلى فى أكثر التصوير الهولندى ، ولكن البيت فى فن فرمير يصبح معبدا صغيرا ، والزوجة معتزة بالخدمات التى تؤديها . وفى لوحته « للمسيح مع مريم ومرثا » (٢٥) تشارك مرثا مريم فى الجلوس على المنصة . ولم تمد تساؤه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التى نراها أحيانا فى الفن الهولندى ، ففيهن شىء

من التهذيب والحساسية . بل لقد تجدهن — كما ترى فى السيدة الجالسة فى صورة « السيدة والخادمة » (٢٦) — غاليات اللباس ، رقيقات القسمات ، مصففات الشعر فى عناية ، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى ، كما فى صورة « السيدة الجالسة إلى العذراوية »(٢٧) (آلة موسيقية) . إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة ، أو قصيدة غنائية ذات لحظات عائلية بسيطة طبيعية ، لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعـدد ، بل — فى أفضل ما رسم من لوحات — امرأة واحدة فقط ، تقرأ رسالة فى هدوء (٢٨) ، أو تكب على خياطتها(٢٩) أو تتحلى بقلادة ، أو تنام على خياطتها(٣٠) ، أو مجرد صبية وابتسامتها (٣١). لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد . ولـكنه أوشك أن يكون نسياً منسياً فى القرن الثامن عشر ، ونسبت روائعه الصغيرة إلى دى هوخ ، أو تيربورخ ، أو رمبرانت ، ولم يبعث من مثواه إلا فى ١٨٥٨ . واليوم لا يعلو عـــلى اسمه غير اسم رمبرانت وهالس فى التصوير الهولندى .

بقى شىء واحد تفتقده فى هؤلاء المصورين للحياة اليومية — هو حياة الطبيعة التى أحاطت بالمدن المتطفلة عليها . فايطاليا ، وبوسان فى ايطاليا ، كانا قد التقطا شيئا من الهواء النقى والحقول الطلقة ، وستكتشفهما انجلترة فى القرن التالى ، اما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنها النظيف او المرح ، ووضعوا حواملهم ليقتنصوا سحر الغدران المترقرقة ، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة ، والمزارع المزهرة ، والأشجار التى تخجل تعجلنا المحموم ، والمراكب الغريبة تتهادى فى الثغور المزدحمة ، والسحب التى تلون السماء بشتى الأشكال . والعالم كله يعرف لوحة « طريق ميدلهارنس » التى رسمها ماينديرت هوبيما — وهى منظور يتلاشى فى فضاء لانهاية له ، ولـكن اجمل منها بكثير لوحته « طاحونة المسـاء ذات السقف الاحمر الـكبير (٣٢) » . وقد وجد ألبرت كويب الالهام فى الابقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (٣٣) ، والخيل تقف ظامئة عند خان ، وقلوع

المراكب تختفى فوق البحر (٣٤). وتعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التى تعكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمدية)(٣٥)، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه .

أما ابن أخيه هذا ، واسمه يعقوب فان رويسدال ، فقد ترعرع فى هارلم ، وترك لنا « منظرا لهارلم (٣٦) » لا يقل وقعا فى نفس الناظر عن لوحة فرمير « ديلفت » ، ويفضلها نقلا لتعقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة . ثم انتقل إلى امستردام واصبح عضوا فى الاخوان المينونيين ، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوى للطبيعة التى أحب أن يفنى فيها . وعرف أن تلك الحقول ، والغابات ، والسماوات التى تعد بالسلام ، تستطيع كذلك أن تدمر ، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى أعتى الاشجار واصلبها وتمزقها من جذورها ، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون فى الارض الطيبة ، وأن البرق قد ينفث ناره القتالة على كل شكل من أشكال الحياة فى لامبالاة عابثة . فصورته « مستقط الماء على الجرف (٣٧) » ليست أنشودة رعوية انما هى ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها ويغرقها أو يبر بها ، ولوحة « العاصفة (٣٨) » هى البحر يلطم عدوه اليابس فى غضب ، ولوحة « الشاطىء (٣٩) » لا تصور شاطئا للهو بل ساحلا كدرته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة ، ولوحة « الشتاء (٤٠) » لا تعرض مرح التزحلق ، بل كوخا حقيرا يرتجف تحت غيوم منذرة ، وحفره الرائع « اشجار البلوط » يجردها من وقارها اليرى أغصانها شعثاء أو عارية ، وسيقانها وقد أنحنها الزمن القاسى بالجروح وشوه شكلها . ولوحة « جبانة اليهود (٤١) » هى ذاتها صورة للموت — أسوار متهدمة ، وشجرة نمو ت ، ومياه فيضان تجرى فوق القبور . وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائما مكتئبا ، ففى لوحة « حقل القمح (٤٢) » نقل باحساس عميق هدوء طريق ريفى ، وبركة المحاصيل الوفيرة ، وفرحة الفضاء المترامى . ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما سور رويسدال ، فلم ينقدوه عليها الأجرا بخسا ،

وتركوا صاحبها يموت فى ملجأ للفقراء . واليوم يضعه بعضهم فى مكان لايفضله فيه غير بوسان بين مصورى الطبيعه فى جميع العصور(٤٣).

ثروة لا حـــد لها فى حجرة صغيرة — رمبرانت وهالس ، فرمير ورويسدال ، سبينوزا وهويجنس ، ترومب ودرويتر ، جان دى ويت ووليم الثالث ، كلهم فى زمن واحد داخل حـدود ضيقة ، يكدحون غير آمنين خلف الكثبان ، يصونون فنون السلم وسط نذر الحرب . تلك هى هولندة فى القرن السابع عشر . و « ليست العبرة بكبر الحجم » .

٤ ــ جان دى ويت : ٦٢٥ - ٧٢

بعـــد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال واللهو والحرب . كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاء بأنفسهم ، فحاصيل أرضها لاتقيم أكثر من ثمن سكانها ، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات ، وهـذان يعتمدان على بحريه قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية . وكان تفوق أسبانيا البحرى قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية ، ونشرت البحرية الإنجليزية التى ازدهاها النصر قلوعها فوق أرجاء مترامية من المحيط . ومالبث التوسع التجارى الإنجليزى أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية فى الهند وجزر الهند الشرقية ، وأفريقيا ، وحتى فى « امستردام الجديدة » التى ستصبح نيويورك . وأحس بعض الانجليز ، الذين لم تهدأ فيهم بعـد حمية هوكنز ودريك ، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغى أن يحـــل محلهم بريطانيون جبابرة ، وأن هذا ميسور بنصر أو نصرين بحريين . وقد ذكر إيرل كلارندون فى تقرير له « أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التى يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين ، وعن سهولة قهرهم ، وعن حجم التجارة التى يمكن أن ينقلها الانجليز بعد ذلك »(٤٤) وراقت كرومويل الفكرة .

فى ١٦٥١ أقر البرلمان الانجليزى قانونا للملاحة يحظر على السفن الاجنبية أن تجلب لأنجلترة أى بضاعة إلا ماينتجه بلدها . وكان الهولنديون يشحنون إلى انجلترة حاصلات مستعمراتهم ، فتوقفت الآن هذه التجارة الرابحة . وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل فى القانون ، فلم يكتف الأنجليز برفض الطلب ، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الانجليزية فى «المياه الانجليزية» (أى جميع المياه بين انجلتره وفرنسا والأراضى المنخفضة) اعـــترافاً بسيادة الانجليز على تلك البحار . وعاد المبعوثون الهولنديون بخفى حنين إلى لاهاى . وفى فبراير ١٦٥٢ استولى الانجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدوها فى « المياه الانجليزية » . وفى ١٩ مايو التقى أسطول انجليزى بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندى بقيادة مارتن ترومب ، ورفض ترمب خفض علمه ، فهاجمه بليك ، وانسحب ترومب . وهكذا بدأت « الحرب الهولندية الأولى » .

وأوشكت انفصالية الأقاليم ، المفروض أنها متحدة ، أن تجر عليها الدمار . ذلك أن الزعامة الحربية الموحدة التى أتاحها لها من قبـــل أمراء أورنج كانت قد انقطعت ، وأصبح المجلس التشريعى للولايات جمعية للمناقشة والجدل بدلا من أن يصبح دولة . أما الانجليز فكانوا يملكون حكومة قوية ممركزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل ، وكان لهم بحرية أفضل ، وقد أوتوا جميع الميزات التى حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة . فدمروا أساطيل الصيد الهولندية ، واستولوا عـــلى المراكب التجارية الهولندية ، وهزموا أمير البحر الهولندى درويتر تجاه ساحل كنت . وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجينيس (٣٠ نوفمبر ١٦٥٢) ، ولـكنه مات فى المعركة فى يوليو التالى . وكانت نتيجة سنة واحـدة من الحرب إثبات تفوق انجلترة بالبرهان الدامغ . وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندى يشل الحياة الاقتصادية فى الأقاليم المتحدة . وأشرف الألوف من سكانها على الهلاك جوعا وهددوا بالتمرد .

فى هذه المرحلة الحاسمة التعسة اضطلع جان دى ويت بزعامة البلاد ، وكان ينتمى إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق فى التجارة والسياسة الهولنديتين . وقد انتخب أبوه يعقوب دى ويت عمـــدة على دوردشت ست مرات . أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور ، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنيليس ، والتقى بكرومويل فى إنجلترة ، ثم استقر فى لاهاى محامياً (١٦٤٧) . وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحـدا من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن وليم الثانى أمير أورنج ، رئيس الدولة ، رغبـــة فى توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم . فلما مات وليم الثانى (١٦٥٠) رفض المجلس التشريعى قبول ابنه الذى ولد عقب وفاته خلفاً له ، ربما متأثراً فى ذلك بإقامة انجلترة حكومة جمهورية فيها (١٦٤٩) بصورة بدا أن التوفيق حالفها ، وألغى منصب رئيس الدولة . وأصبحت المسرحيـــة الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التى يمثلها دى ويت ، والروح الأرستقراطية العسكرية التى أزمع أن يحييها بعد قليل الشاب المتحمس وليم الثالث .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦٥٠ ، انتخب جان دى ويت — وهو لا يزال فى الخامسة والعشرين — كبيراً لولاة دوردرشت ، وممثلا لها فى المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة . وفى فبراير ١٦٥٣ عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية ، وناط به مهـــمة عسيرة هى مفاوضة إنجلترة المنتصرة على الصلح . وكان كرومويل قاسياً لا يرحم ، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الانجليزية ويحيوا العلم الانجليزى فى القنال الانجليزى ، وبأن يسلموا بحق القباطنة الانجليز فى تفتيش السفن الهولندية فى البحر ، وبأن يؤدوا رسـوماً نظير امتياز الصيد فى المياه الانجليزية ، وبأن يدفعوا تعويضا عن قتل الهولنديين للانجليز فى أمبوينا عام ١٦٢٣ ، وبأن ينحوا بصفة دائمـــة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورنج — الذى قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش انجلترة لما بينه وبينها من مصاهرة . وحذف

دى ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعى وكما تصدق عليها منه (٢٢ أبريل ١٦٥٤) ، ثم أقنع المجلس التشريعى لاقليم واحد — هو اقليم هولندة — بقبول المعاهدة بمافيها هذا البند . ولم يغتفر له وليم الثالث فعلته هذه قط .

ثم وطد دى ويت مركزه بالزواج من ويندبلا بيكر الغنية ، وأصبح عن طريقها صهرا لأمراء التجارة فى أمستردام ، وبتأييدهم شغل اهم المناصب فى هولندة هو وأبوه ، وأخوه ، وبنو عمومته ، وأصدقاؤه ؛ وسرعان ماقبض على زمام الحكم كله فى الاقليم . وقبلت أقاليم أخرى زعامته على مضض ، لأن هولندة التى أغنتها موانيها كانت تدفع سبعة وخمسين فى المائة من نفقات الاتحاد ، وتقدم معظم الاسطول الهولندى ، ولم يكن محبوبا من جماهير الشعب . ولكن حكمه كان مستنيرا وكفؤا . فقد حد من النفقات الباهظة ، وخفض الفائدة على الدين القدرالى ، وأجرى خصما شاملا الأسطول ، وبنى سفنا أفضل ، ودرب عاملين جددا فى البحرية . واذ كان يعكس مشاعر التجار ، فانه كافح فى سبيل السلام ولكنه استعد للحرب . وفى ١٦٥٨ ، ثم فى ١٦٦٣ ، أعيد انتخابه حاكما اعلى للاقاليم المتحدة . وقد وقع من نفوس المراقبين باخلاصـــه لمهام الحكم ، وببساطة مسلكه وتواضعه ، وبنقاء حياته العائلية . ويسرت له ثروة زوجته العيش فى منزل فخم يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب فى جوهيب ، ولكن ذلك المنزل كان مركزا للثقافة الهولنديه أكثر منه مركزا للمظهر المترف ، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة ، وتوثق العلم والفلسفة ربما بحرية لايطيقها ناخبودى ويت الكلفنيون . وحتى سبينوزا ، ذلك المهرطق المرهوب ، وجد صديقا وفيا وحاميا له فى الحاكم الأعلى .

لقد كانت مأساته دائما أنه أحب السلام أكثر من الحرب ، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قوام للقضاء عليها . وفى ١٦٦٠ رد تشارلز

الثانى الى عرش انجلترة ، فأوصى جان دى ويت مشددا بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث ، وبعد قليل طالب بالغاء « قانون الإبعاد » الذى أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب ، ووافق دى ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتى لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه . وفى اكتوبر ١٦٦٤ ، استولت حملة انجليزية على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية ، وأطلقت عليها اسما آخر هو نيويورك تكريما لدوق يورك (جيمس الثانى مستقبلا) وكان يومها قائد البحرية الانجليزية . واحتج المجلس التشريعى للأقاليم المتحدة ، ولم تعبأ إنجلترة بالاحتجاج ، وفى مارس ١٦٦٥ بدأت الحرب الهولندية الثانية .

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذه دى ويت من استعدادات . ذلك أن ضعف القيادة قد انتقل من المجلس التشريعى إلى حكومة تشارلز الثانى الغافلة العاجزة ، وبينما كان الملك المرح يراقص خليلته ، ظفر دى ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلهما لكل نواحى التنظيم الحربى وتفاصيله . فقد أبحر غير مرة مع الاسطول ، وعرض نفسه لكل مخاطر المعركة ، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته . ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفؤا للبحرية الانجليزية فى السفن أو الرجال أو النظام ، فأوقعت البحرية الانجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية فى أول لقاء كبير فى الحرب (لوفستوفت ، ١٣ يونيو ١٦٦٥) . على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولوا عليه رجلا من أقدر وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ . وفى يونيو ١٦٦٧ قاد هذا الرجل ، وهو ميشيل أدريانسزون درويتر ، ستا وستين سفينة إلى نهر التيمز ، واستولى على قلعه شيرنيس (على نحو أربعين ميلا شرقى لندن) ، وحطم الحواجز التى تعترض الدخول فى نهر ميدواى (الذى يصب فى التيمز عند شيرنس) وأخذ ، أو أحرق ، أو أغرق ست عشرة سفينه حربيه كانت راسيه هناك دون تأهب لمثل هذا الرائر الوقح (١٢ يونيو ١٦٦٧) . وإذ

لم يكن بتشارلز الثانى ولع بالحرب ، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صلحاً مقبولا . وفى ٢١ يوليو ١٦٦٧ وقعت الدولتان معاهدة بريدا ، وبمقتضاها نزل الهولنديون لانجلترة عن نيويورك التى خالوها غيرهامه ، ووافقوا على أن يحيوا العلم الانجليزى فى المياه الانجليزية ، ونزلت انجلترة للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية . وكانت المعاهدة نصراً معتدلا لدى ويت وبلغت به قمة نجاحه .

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء القاتلة ، فقد زاد من تنفير مؤيدى وليم الثالث بأن أجاز فى المجلس الإقليمى لهولندة (٥ أغسطس ١٦٦٧) « مرسوماً دائماً » يمنع أى حاكم لأى أقليم من تولى قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد . فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلوا من القواد المحنكين . ولسوء الحظ وقع هذا الحدث ، الناجم عن المنافسة بين أسرتين ، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضى المنخفضة الأسبانية ، فهددت بذلك المصالح الحيوية للأقاليم المتحدة . فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح السلت للتجارة الأجنبية من جديد ، فإذا انتعشت بذلك أنتورب تحدت السيادة التجارية لأمستردام ، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله فى خطر . ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها ؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة ، ويستولى على مصاب الراين ، لما بقى للبلد فى الواقع وجود ، ولقضى على البروتستنتية الهولندية قضاء مبرماً .

وعرض دى ويت على الملك المعتدى سلسلة من الحلول الوسط ، ولكنه رفضها . فاتفق مع أنجلترة (٢٣ يناير ١٦٦٨) ، ثم مع السويد ، على حلف ثلاثى للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسى . ووافق لويس فى لباقة على إنهاء « حرب الأيلولة » (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقى بطاقاً من المدن

والحصون التى استولى عليها فى فلاندر وإينو . وارتضت هذه الشروط أنجلترة والسويد ، ثم الأقاليم المتحدة ، فى معاهدة إكس — لا — شابل (٢ مايو ١٦٦٨) . وبدا أن دبلوماسية دى ويت جنبت البلاد الخطر ، وفى يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة خمس سنوات أخرى .

ولكنه أخطأ استقراء سياسات ملكى فرنسا وأنجلترة . ذلك أن لويس لم يغتفر للهولنديين قط تدخلهم فى غزوه للأراضى المنخفضة الأسبانية . فأقسم أنه « إن ضايقته هولنده كما ضايقت الأسبان فسيرسل رجاله بالمجارف والمعاول ليقذفوا بها فى البحر(٤٥) » ، ربما بفتح الجسور البحرية عليها . كانت تغيظه الجمهورية ، وكان يطمع فى الراين ، فعقد النية على تدمير تلك ، والسيطرة على هذا . وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التى نشبت بين الخصمين ؛ فقد فرض كولبير رسوما مانعة على البضائع الهولندية التى تدخل فرنسا ، ورد الهولنديون عليها بمثلها . ولكن الذخيرة الحربية استثنيت استثناء بارعاً من هذه القيود ؛ ذلك أن لوفوا ، وزير الحربية الفرنسى ، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقاديرهائلة من المتاد الحربى(٤٦) ، وفى الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة على الضرائب التى أراد دى ويت فرضها لتزويد الجيش بالأمداد والمؤن . وأثبت السلك الدبلوماسى الفرنسى حذقه ، أو ثراءه ، بعزله إنجلترة والسويد عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة . فوافق تشارلز الثانى فى معاهدة دوفر السرية (١ يونيو ١٦٧٠) على التخلى عن الحلف الثلاثى والانضمام إلى لويس فى حربه مع الهولنديين . أما السويد فقد انسحبت من الحلف فى ١٦٧٢ لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا ، ووعدت أسبانيا ، والأمبراطورية ، وبراندنبورج ، الجمهورية بالمساعدة ، ولكن ما كان تحت تصرفها من قوات كان أضأل أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

القوات المجندة الضخمة التى أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة براً وبحراً . وعاد دى ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط ، فرفضها لويس

وفى ٢٣ مارس ١٦٧٢ بدأت إنجلترة الهجوم على الجمهورية الهولندية ، وفى ٦ أبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب . وسرعان مازحف نحو ١٣٠٫٠٠٠ مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين ، وكوندیه ، ولكسمبور ، وفوبان ، ولويس نفسه . يقول فولتير « لم يشهد الناس من قبل جيشاً ضخماً كهذا الجيش(٧) » ، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية ، باستراتيجية بارعة وغير متوقعة ، الأراضى الألمانية — مهدئة ثائرة القرى بـ « الهدايا » — لتهاجم النقط الأضعف تحصيناً . وفى ١٢ يونيو ، وتحت نيران الهولنديين وبصر الملك ، عبر الفرنسيون الراين ، وهم يسبحون عرض الأقدام الستين التى لم يسمح لهم عمقها أن يخوضوها ؛ وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور والأيقونات الملكية . وزحفت الجيوش الملكية شمالا إلى قلب الأقاليم المتحدة ، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة . واستسلمت أوترخت دون مقاومة ، وأذعن أقليما أوفريسيل وجلدرلاند ، ولم يبق بعد قليل غير أمستردام ولاهاى . ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التى أوقعها درويتر فى ٦ يونيو بالأسطولين الإنجليزى والفرنسى مجتمعين فى خليج ساوثوولد . وطلب دى ويت الصلح ، فطالب لويس بتعويض ضخم ، وبسيطرة الفرنسيين على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية ، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء الجمهورية . ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية ، فلجأوا إلى دفاعهم الأخير : وفتحوا الجسور ، وأدخلوا البحر عدوهم القديم صديقاً منقذاً ، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس ، وتقهقر الفرنسيون عاجزين أمام هذا الفيضان الذى أخذهم على غرة .

ومع هذا فقد خربت البلاد ، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب كولونيا ، المتحالفين مع لويس ، تزحف دون عائق على إقليم أوفريسيل ،

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر ، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار . أما دى ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أى رجل قبله فى تاريخ هولنده — فجمع الأموال ، وجهز الأسطول وزوده ، ووقف إلى جوار درويتر فى معركة خليج ساوثوولد ، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه . وفى يونيو ١٦٧٢ عرض على لويس أن ينزل له عن ماسترشت واجزاء من برابانت الهولندية ، وأن يدفع كل نفقات الحرب . ولكن لويس ازدرى هذا العرض أيضاً ، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض تددوا به رجلا يبيت استسلام الخيانة للويس(٤٨) . وألقى عليه الشعب الآن كل تبعة ما أصابهم من نكبات . واتهموه بالنقه الساذجه المستهترة فى وعود تشارلز الثانى ولويس الرابع عشر ، ورموه بتعيين أقاربه فى أكثر من عشر وظائف مجزية ، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يغتفروا له حرمان بيت اورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التى حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان . ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجبنهم . ورماه القساوسة الكلفنيون بانه ملحد مقنع ، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا (٤٩) . وحتى طبقات التجار التى كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بانه منظم الهزيمة .

وشاركه أخوه كورنيليس فى تلقى بغض الجماهير وشتائمها ، وهو الذى قاسمه من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها . وفى ٢١ يونيو ١٦٧٢ بدلت محاولة فاشلة لاغتيال جان ، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس . وفى ٢٤ يوليو قبض موظفو لاهاى على كورنيليس بتهمة التامر على أمير اورنج وفى ٤ أغسطس استقال جان من منصبه حاكما أعلى . وفى ١٩ أوغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفى . وشق جان طريقه خلال المدينة المعادية الى سجن الجيفانجينبورن ليرى أخاه رغم أنه حذربانه يعرض حياته للخطر . ومالبث جمع من

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصائغ وحلاق . وكان هناك حارس مدنى كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دى ويت ، فلم يبد أى مقاومة حين حطموا أبواب السجن واندفعوا الى داخله . وقبضوا على جان وكورنيليس ، وجروهما الى الميدان ، وضربوهما حتى الموت ، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأساهما منكسان (٢٠ أغسطس ١٦٧٢) . ومانت الجمهورية الهولندية بموتهما ، وعاد بيت أورنج الى السلطة من جديد .

٥ - وليم أورنج الثالث

نشأت مارى ستيوارت ولدها على لون مكتئب من ضبط النفس يترقب فى صمت فرصته حتى يأتى التجلد بالنصر ، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (١٦٤٩) ، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثانى (١٦٥٠) ، والغاء منصب رئاسة الدولة ، واقصاء بيت أورنج عن الوظائف . هذا الصبى الهزيل الجسد ، الذى أحدق به فى نموه الأعداء المكلفون بحراسته ، والذى ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول شعاره «سأقاوم» — نقول انه شب فتى عليلا يخفى وراء وجهه الجامد نارا مستعرة من العزيمة والثأر . واذ كان صارما ، مؤدبا ، مجاملا فى برود ، فقد زهد فى اللهو والمرح ، ومارس الرياضات الخلوية علاجا لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الاغماء . لقد كان إناء ضعيفا لتلك الروح التى ستتولى على عرش انجلترة وتؤدب ملك فرنسا .

وذهبت أمه الى انجلترا فى ١٦٦٠ ابتهاجا بتتويج أخيها ، ومانت هناك بالجدرى فى ليلة عيد الميلاد . وفى ١٦٦٦ أعلنت حكومة انليم مولده الأمير ذا الستة عشر عاما قاصرا تحت وصاية الدولة ، واستبدل جان دى ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين اشخاصا اكثر استجابة لسياسة المجلس

الاقليمى(٥٠). وكان كره وليم لدى ويت يزداد على الايام . وفى قمة سلطان جان ، أذلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جواده من لاهاى الى بيرجن أوب ـ زوم (١٦٦٨) ، ثم استقل زورقا الى زيلندة ، وكانت اكثر الأقاليم ولاء لأجداده وحياه سكان عاصمته مدلبورج بمظاهرات كبيرة تفيض حبا واخلاصا . فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة مجلس الاقليمى لزيلندة. فلما عاد الى لاهاى أعلن انه بلغ الآن رشده فى عيد ميلاده الثامن عشر (٤ نوفمبر ١٦٦٨) ، وأنه منذ الآن سيستغنى عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولندة ، ولكن المجلس رفض سحبهم ، فطردهم ، ولكنهم بقوا . وترقب وليم فرصته.

وقد واتته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية ، واستسلمت الجيوش الهولندية بلدا بعد بلد ، وبدا أن لاهاى ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، وعين المجلس التشريعى وليم قائدا عاما للاتحاد (٢٥ فبراير ١٦٧٢) ، مذعنا لمطالب العسكريين ، ومؤملا أن تعود الى الأمة وحدتها ومعنويتها برد بيت أورنج الى مكان القيادة . وفى ٢ يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكما لاقليمهم ، ضاربا بالمرسوم الدائم عرض الحائط ، وفى ٤ يوليو حذا مجلس هولندة حذوه ، وفى ٨ يوليو عين قائدا أعلى لقوات الاتحاد المسلحة فى البر والبحر . وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح بنظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين ، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا ، وموستر ، وكولونيا ، وقدم عرض سرى بالاعتراف بوليم ملكا على الباقى . واتجه اليه مجلس هولندة يطلب النصيحة فأجاب ، « خير لنا أن نقطع إربا من أن نقبل هذه الشروط (٥١) . » وحين حضر دوق بكنجهام الثانى من انجلترة ليحث وليم على الصلح وقال له « الا ترى أن وطنك قد ضاع ؟ » أجاب « ان وطني فى خطر عظيم ، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع ، وهو الموت فى آخر خندق(٥٢) » . ومع ذلك فتى حكمة تستغرب من فتى فى الثانية والعشرين ، اشار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الانجليز ، ولعله رأى آنئذ أن فى التعاون

بين الانجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا . واتخذ من التدابير ما يكفل توثيق الروابط بين الأقاليم المتحدة ، والامبراطورية ، وبراندنبورج . وكانت الخطوط العريضة للحلف الأعظم تتشكل فى ذهنه .

ومضى الى المقر الرئيسى للجيش ، لذلك كان غائبا عن لاهاى حين قتل الأخوان دى ويت . والظاهر أنه لم يكن ضالعا فى تدبير هذه الفعلة ، التى ربما لم يدبرها أحد ، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنبئها ؛ وحمى الرجال الذين قادوا الغوغاء ورتب لهم معاشا (٥٣) . ثم حاول الآن أن يكون قائدا كفؤا ، فلم يوفق قط فى محاولته ، غير أن المقاتلين المحنكين الذين انضووا تحت لوائه فى حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية ، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم ، وتفوق درويتر وكورنيليس تروميب (بن مارتن) على الأسطولين الانجليزى والفرنسى فى شونفيلت وكيكدوين (١٦٧٣) ، وصد الغزاة الألمان عند جروننجن ، واستولى وليم على . ماردن ، وطهرت أقاليم جلدرلاند وأوترخت ، واوفريسل ، من العدو . وراح الفرنسيون يتقهقرون فى كل مكان تقريبا ، وأنقذت الأقاليم المتحدة ، مؤقتا على الأقل ، فهللت لوليم منقذا لها .

ثم أضاف الى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية . ففى ١٩ فبراير ١٦٧٤ أقنع انجلترة بأن تبرم معه صلحا منفردا إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليونا فلورين ؛ وفى ٢٢ أبريل و ١١ مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولونيا ، ثم اكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة ، وأسبانيا ، وبراندنبورج ، الدنمرك ، والامبراطورية ، ضد فرنسا التى أصبحت الآن معزولة . وكانت الضربة الأخيرة ظفره بيد ماري ، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك انجلترة . وتقاربت الآن الدولتان البروتستنتيتان الكبريان ، وراحت الشبكة تحكم خيوطها حول فرنسا ، ولم يكن أمرا هينا أن يكون لماري حق فى وراثة العرش الانجليزى لايتقدم عليه غير حق أبيها فيه . وتدرك التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كوليم مثل هذه الخطط البعيدة النظر ، ولا حقق لها نجاحا كهذا النجاح .

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك ، فاستولوا على إيبروغنت ، وزحفوا نحو الحـــدود الهولندية . وهزم أسطول فرنسى درويتر تجاه شاطىء صقلية (٢٢ أبريل ١٦٧٦) ، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه . وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحـدة بشروط مغرية : أن يرد كل الأراضى الهولندية التى استولى عليها الفرنسيون ، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة عـــلى احتفاظه بفرانش ـ كونتيه والاورين . واحتج الامبراطور ، وبراندنبورج ، والدنمرك على هـذا الصلح ، وأيدهم وليم ، ولـكن المجلس التشريعى الذى غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه ، وتخلى عن حلفائه ، ووقع مع فرنسا صلح نيميجن المنفصل (١٠ أغسطس ١٦٧٧) .

أما وليم فقد نظر إلى الصلح على أنه مجرد هدنة ، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح التجار الهولنديون طبعه العسكرى ، محتجين بأن الأقاليم المنهكة فى حاجة لأن تستريح من النضال ، وأن الرخاء فى طريقه إليها . على أن حدثين وقعا عام ١٦٨٥ فاستغلهما وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم نانت ، فاحتشد الهيجونوت المضطهـدون فى الأقاليم المتحدة ، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستينية ضـد فرنسا . وفى انجلترة كشف جيمس الثانى ، بعد أن تولى عرشها ، عن أمله فى رد الأمة إلى الـكثلـكة ، فدبر البروتستنت الإنجليز عزله ، وبذلك يحل حق مارى زوجة وليم فى العرش . وكان وليم قد عشق اليزابيث فيليبيه ، صديقة مارى(٥٤) الحميمة ، ولـكن مارى غفرت له ، ووافقت على طاعـة زوجها بوصفه ملـكا أن هى أصبحت ملـكة على انجلترة وفى ١٦٨٦ أفلح وليم فى تنظيم حلف مع الامبراطورية ، وبراندنبورج ، وأسبانيا ، والسويد ، للدفاع المشترك . وفى ٣٠ يونيو ١٦٨٨ دعا الزعماء البروتستنت الانجليز وليم ومارى إلى دخـــول انجلترة بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملـكهم الـكاثوليكى . وتردد وليم ، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش عرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضى المنخفضة أو الامبراطورية . وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا ، فأطلق بذلك يد وليم . وفى ١ نوفمبر ١٦٨٨ أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش انجلترة .

فهرس

الجزء الأول

من المجلد الثامن

الكتاب الأول

فرنسا فى أوج عظمتها ١٦٤٣ — ١٧١٧

	صفحة
الفصل الأول	
الحكم شخصى : ١٦٤٣ — ٨٤	٧
١ — مازاران والفرونده .	٧ — ٢١
٢ — الملك .	٢١ — ٣١
٣ — هنرييت فوكيه .	٣١ — ٣٤
٤ — كولبير يعيد بناء فرنسا .	٣٤ — ٤٥
٥ — الآداب والأخلاق .	٤٥ — ٥٢
٦ — بلاط الملك .	٥٢ — ٥٧
٧ — نساء الملك .	٥٧ — ٦٨
٨ — الملك يمضى إلى الحرب .	٦٩ — ٧٤
الفصل الثانى	
وثقة الإيمان ١٦٤٣ — ١٧١٥	٧٥
١ — الملك والكنيسة .	٧٥ — ٨١
٢ — البور رويال ١٢٠٤ — ١٦٢٦	٨١ — ٨٦

٣ — الجانسنيون واليسوعيين	٨٦—٩٠
٤ — بسكال .	٩٠
(أ) بسكال الإنسان .	٩٠—٩٥
(ب) الرسائل الاقليمية .	٩٥—٩٧
(جـ) فى الدفاع عن الإيمان .	٩٧ ١٠٧
٥ — البور — رويال . ١٦٥٦ — ١٧١٥	١٠٧ — ١١٠
٦ — لالك والهيجونوت .	١١١ — ١١٩
٧ — بوسويه .	١١٩ — ١٢٨
٨ فنيلون	١٢٨ - ١٣٥

الفصل الثالث

لالك والفنون : ١٦٤٣ — ١٧١٥	١٣٦
١ — تنظيم الفنون .	١٣٦ — ١٤٠
٢ — العمارة	١٤٠ — ١٤٦
٣ — الزخرفة .	١٤٦ . ١٤٩
٤ — التصوير .	١٤٩ ١٥٥
٥ — النحت .	١٥٥ — ١٦١

الفصل الرابع

موليير : ١٦٢٢ — ٧٣	١٦٢
١ — المسرح الفرنسى .	٢٦٢ ١٦٤
٢ — تلمذته .	١٦٤ ١٦٧
٣ — موليير وسيدات المجتمع	١٦٨ — ١٧٧
٤ — غرام طرطوف	١٧٧ . ١٨٣
٥ — الملحد العاشق .	١٨٣ ١٨٦

٦ — موليير فى أوجه .	١٨٦	١٩٤
٧ — ستار .	١٩٤	١٩٨

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية فى الأدب الفرنسى : ١٦٤٣ — ١٧١٥	١٩٩	٢٠٢
١ — جو الكلاسيكية .	١٩٩	٢٠٢
٢ — تذييل لكورنى .	٢٠٢	٢٠٤
٣ — راسين .	٢٠٤	٢٢١
٤ — لافونتين .	٢٢١	٢٢٤
٥ — بوالو .	٢٢٤	٢٢٨
٦ — الاحتجاج الرومانسى .	٢٢٩	٢٣١
٧ — مدام دسفيانيه .	٢٣٢	٢٣٧
٨ — لا روشفوكو .	٢٣٧	٢٤٣
٩ — لا برويير .	٢٤٣	٢٤٥
١٠ — مزيد من الأدباء .	٢٤٥	٢٥٠

الفصل السادس

مأساة فى الأراضى المنخفضة : ١٦٤٩ — ١٧١٥	٢٥١	
١ — الأراضى المنخفضة الأسبانية .	٢٥١	٢٥٣
٢ — الجمهورية الهولندية .	٢٥٣	٢٥٨
٣ — ازدهار صور الحياة اليومية .	٢٥٨	٢٦٣
٤ — جان دى ويت .	٢٦٣	٢٧٢
٥ — وليم أورنج الثالث .	٢٧٢	٢٧٦

المراجع

م

CHAPTER I

1. Motteville, Mme. de, *Memoirs*, I, 79.
2. Retz, Cardinal de, *Memoirs*, 103.
3. Motteville, I, 81.
4. Retz, 103.
5. Motteville, III, 232.
6. *History Today*, July 1959, p. 461.
7. Bishop, M., *Life and Adventures of La Rochefoucauld*, 149.
8. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 36.
9. Retz, 281.
10. Sainte-Beuve, *Portraits of the Seventeenth Century*, I, 335.
11. Retz, 55, 73.
12. Voltaire, *Louis XIV*, 67.
13. Michelet, *Histoire de France*, IV, 388; Acton, *Lectures on Modern History*, 235.
14. Motteville, III, 237.
15. Palmer, *Molière*, 15.
16. Saint-Simon, *Memoirs*, II, 361.
17. Sainte-Beuve, I, 422.
18. *Ibid.*, 417.
19. *History Today*, March 1954, p. 149.
20. Voltaire, 256.
21. *Ibid.*, 69.
22. Rea, Lilian, *Countess of La Fayette*, 170.
23. Ferval, *Louise de La Vallière*, 55.
24. Saint-Simon, II, 369.
25. Sainte-Beuve, I, 413.
26. Saint-Simon, II, 361.
27. Sainte-Beuve, I, 423.
28. Louiv XIV, *Mémoires*, 35.
29. In Sainte-Beuve, I, 417.
30. Boulenger, *Seventeenth Century*, 178.
31. Motteville, III, 248.
32. Lewis, W. H., *Splendid Century*, 30.
33. Voltaire, 257.
34. Barine, *La Grande Mademoiselle*, 117.
35. Louis XIV, 76.
36. Martin, H., *Age of Louis XIV*, I, 63-65; Michelet, IV, 424-27.
37. Guizot, *History of Civilization*, I, 160.
38. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 533.
39. Louis XIV, 96.
40. King, J. E., *Science and Rationalism in the Government of Louis XIV*, 87.
41. Saint-Simon, II, 34.
42. Louis XIV, 68.
43. King, 95.
44. Saint-Simon, II, 106, 370.
45. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 153.
46. Louis XIV, 70.
47. France, Anatole, *Nicolas Fouquet*, 258.
48. Voltaire, 262.
49. Martin, H., I, 23, quoting de Choisi.
50. Louis XIV, 74.
51. Martin, I, 22.
52. Sée, Henri, *Economic and Social Conditions in France during the 18th Century*, 93.
53. Martin, I, 34.
54. *Ibid.*, 33f.; Michelet, IV, 410.
55. Boulenger, 356.
56. Mousnier, R., *Histoire générale des civilisations*, IV, 148.
57. Voltaire, 324; Martin, I, 79.
58. Michelet, IV, 428.
59. Mousnier, IV, 148.
60. Voltaire, 273; Martin, I, 86.
61. Boulenger, 357; Lewis, *Splendid Century*, 81.
62. *History Today*, March 1954, p. 155.
63. Mousnier, IV, 252.
64. Nussbaum, *Economic Institutions of Modern Europe*, 154.
65. Mousnier, IV, 250; *Cambridge Modern History*, V, 11.
66. Boulenger, 355.
67. Levasseur, *Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789*, I, 394.
68. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 366.
69. In Acton, *Lectures*, 326.
70. Martin, I, 489-90, 496.
71. Voltaire, 323.
72. Martin, I, 558.
73. Barine, 13.
74. Saint-Simon, I, 383; Voltaire, 288.
75. *Encyclopaedia Britannica*, XIII, 778c; Brereton, *Jean Racine*, 245-52.
76. Molière, *Théâtre: École des femmes*, I, i.
77. Sainte-Beuve, I, 250; Day, Lillian, *Ninon*, 34.
78. Sévigné, Mme. de, *Letters*, I, 98, April 1, 1671.
79. Day, *Ninon*, 141.
80. Parton, *Life of Voltaire*, I, 133.
81. Saint-Simon, I, 344.
82. Sévigné, I, 105, April 8, 1671; Day, *Ninon*, 242.
83. *Ibid.*, 80.
84. Saint-Simon, I, 344.
85. Day, 246.
86. *Ibid.*, 185.
87. Saint-Simon, I, 345.
88. Day, 260.
89. Sainte-Beuve, II, 199.

90. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 109.
91. Michelet, V, 118.
92. Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 74.
93. Boulenger, 349.
94. Bourgeois, 77; Guizot, *History of France*, IV, 587.
95. La Bruyère, *Characters*, chap. "Of the Gifts of Fortune."
96. Voltaire, 278.
97. Saint-Simon, II, 11.
98. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 415.
99. Martin, I, 172.
100. *Ibid.*, 171.
101. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, III, 942.
102. Day, *Ninon*, 163.
103. Cartwright, *Madame; A Life of Henrietta, Duchess of Orléans*, 89.
104. Racine, *Oeuvres: Andromaque*, Dedication.
105. Michelet, IV, 405.
106. *Ibid.*, V, 158.
107. Cartwright, 371; Voltaire, 284; Martin, I, 312.
108. Ferval, *La Vallière*, 67.
109. *Ibid.*, 302.
110. Voltaire, 282.
111. Michelet, IV, 437.
112. Saint-Simon, I, 391.
113. Boulenger, 192.
114. Cruttwell, *Mme. de Maintenon*, 29.
115. *Ibid.*, 46.
116. *Ibid.*, 53.
117. Michelet, V, 69; Martin, I, 535.
118. Saint-Amand, *Court of Louis XIV*, 46.
119. Cruttwell, 89; Martin, I, 530.
120. Boulenger, 195; Michelet, IV, 490; Cruttwell, 118-19.
121. Saint-Simon, II, 381.
122. *Ibid.*, III, 15.
123. Acton, 236; Ogg, *Europe in the 17th Century*, 231.
124. Louis XIV, 122-25.
125. Martin, I, 417.
126. Voltaire, 260; Martin, I, 40n.; *Enc. Brit.*, XII, 681c; Acton, 243.
127. *Camb. Mod. History*, V, 77.
128. Lewis, *Splendid Century*, 239.

CHAPTER II

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 393; Guérard, 186-90.
2. Mesnard, *Pascal*, 99.
3. Campbell, *The Jesuits*, 259; Fülop-Miller, 195.
4. Voltaire, 430.
5. Saint-Simon, II, 84.
6. *Ibid.*, III, 37.
7. Louis XIV, 119.
8. Ranke, *History of the Popes*, II, 420.
9. Fülop-Miller, 105.
10. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 74f
11. *Ibid.*, 83; Beard, Charles, *Port Royal*, II, 30.
12. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 89.
13. Beard, Charles, I, 30.
14. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 90.,
15. *Ibid.*, II, 407n.
16. Beard, C., I, 52.
17. Sainte-Beauve, *Port-Royal*, I, 94.
18. Pascal, *Provincial Letters*, Introd., 97, and 421n.
19. Voltaire, 419; Beard, C., I, 260.
20. Pascal, *Letters*, Introd., 109.
21. Mesnard, *Pascal*, 12.
22. Mornet, Daniel, *Short History of French Literature*, 75.
23. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 379; Mesnard, 40.
24. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 748.
25. Pascal, *Pensées*, Havet ed. Introd., p. *civ.*
26. Mesnard, 57.
27. *Ibid.*, 209.
28. Pascal, *Pensées*, Introd., p. *cxxiii.*
29. Pascal, *Provincial Letters*, 197.
30. *Ibid.*, 417.
31. *Ibid.*, 465; *Pensées*, II, 118.
32. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 235.
33. Mesnard, 92.
34. Voltaire, 424.
35. In Pascal, *Provincial Letters*, 127n.
36. Fülop-Miller, 195.
37. Voltaire, 424, 358.
38. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 118.
39. Voltaire, 359.
40. Sainte-Beuve, III, 173f.; Beard, C., I, 84.
41. Pascal, *Pensées*, Introd., *xxviii*; Mesnard, 137-38.
42. *Cf.* Rabelais, Book III, Ch. xiii.
43. *Pensées*, Introd., p. *xxv*; text, 17*bis*.
44. *Ibid.*, text, i, 1.
45. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, 174.
46. *Pensées*, Everyman's Library, No. 82.
47. *Pensées*, Havet ed., Book III, No. 18.
48. Everyman ed., No. 4.
49. Havet ed., XVI, pt 1*bis*.
50. *Ibid.*, XX, p. 19.
51. *Ibid.*, I, p. 1.
52. Everyman ed., No. 349.
53. *Ibid.*, No. 418.
54. Havet ed., VIII, p. 1.
55. *Ibid.*, II, p. 8.
56. *Ibid.*, VI, p. 51; Everyman ed., No. 451.
57. Havet, IV, p. 1.
58. *Ibid.*, II, pp. 6, 1*bis*, 3.
59. Everyman, No. 402.

60. *Ibid.*, No. 397; Havet, I, p. 3.
61. Havet, I, p. 6; Everyman, No. 347.
62. Everyman, No. 277.
63. Havet, XXIV, p. 52.
64. *Ibid.*, X, p. 1; Everyman, No. 233.
65. Everyman, No. 233.
66. Havet, II, p. 8.
67. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 508.
68. Havet, IV, 7.
69. *Ibid.*, XIV, 2.
70. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 124.
71. Owen, 800.
72. *Ibid.*, 775.
73. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 320.
74. Beard, C., II, 75.
75. *Provincial Letters*, 59.
76. *Pensées*, Havet, Introd., *cxii*.
77. Beard, C., II, 352.
78. Disraeli, Isaac, *Curiosities of Literature*, I, 97.
79. Saint-Simon, II, 12.
80. Boulenger, 284.
81. Michelet, V, 298.
82. In Martin, H., I, 231.
83. Lewis, *Splendid Century*, 108.
84. Sanders, *Bossuet*, 53.
85. *Camb. Mod. History*, V, 22.
86. Martin, I, 529.
87. *Ibid.*
88. *Ibid.*, 532.
89. Michelet, IV, 520.
90. Guizot, *History of France*, V, 23.
91. *Camb. Mod. History*, V, 23.
92. *Ibid.*
93. Boulenger, 263.
94. Martin, I, 552.
95. Ogg, *Seventeenth Century*, 305.
96. Martin, II, 33.
97. *Ibid.*, 43.
98. Buckle, H. T., *History of Civilization*, Ib, 492n., quoting Benoist, Élie, *Histoire de l'Édit de Nantes* (1695), V, 887f.
99. Michelet, IV, 507.
100. Voltaire, 409.
101. Martin, II, 44.
102. Robertson, J. M., II, 142.
103. Saint-Simon, III, 14.
104. Beard, Miriam, 373.
105. Bacon, "Of Unity in Religion," in *Essays*.
106. Sanders, *Bossuet*, 46.
107. Bossuet, *Oraisons funèbres et sermons*, 69.
108. *Ibid.*, 108.
109. Eccles. XVII, 14.
110. Romans XIII, 1.
111. Isaiah XIV, 1.
112. Sanders, 213.
113. Bossuet, in Ogg, 202.
114. Sanders, 260.
115. Buckle, Ib, 569.
116. Faguet, *Literary History of France*, 446.
117. Michelet, IV, 517.
118. Martin, II, 268.
119. Sanders, 280; Michelet, IV, 412.
120. Fénelon, *Télémaque*, end of Book IX.
121. *Ibid.*, Book XIII.
122. Faguet, *Literary History*, 446.
123. Hazard, *The European Mind: The Critical Years*, 208.
124. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, II, 191.
125. Bayle, *Philosophical Commentary on . . . "Let Them Come in,"* in Robinson, H., *Bayle the Sceptic*, 73.
126. Bayle, *Dictionnaire historique et critique*, *s.v.* "Xénophanes."
127. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 302.
128. Mornet, *Les Origines intellectuelles de la Révolution française*, 24.
129. Meyer, R. W., *Leibniz and the 17th-Century Revolution*, 35.

CHAPTER III

1. Pradel, *L'Art au siècle de Louis XIV*, 101.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 376.
3. *Ibid.*, 325.
4. Wingfield-Stratford, *History of British Civilization*, 583.
5. Pradel, 96..
6. *Ibid.*, 99.
7. Boulenger, 365.
8. Fergusson, *History of the Modern Styles of Architecture*, 236-8.
9. Saint-Simon, I, 186.
10. Martin, II, 212; Blomfield, *Three Hundred Years of French Architecture*, 86.
11. Victoria and Albert Museum, London.
12. Dillon, *Glass*, 210.
13. Guizot, *History of France*, IV, 566.
14. Stranahan, *History of French Painting*, 50.
15. Louvre.
16. Dimier, Louis, *Histoire de la peinture française* (Paris, 1927), II, 45.
17. Versailles.
18. Benoist, *Coysevox*, 115; the bust is in the Louvre.
19. Louvre.
20. Louvre.
21. Louvre.
22. Louvre.
23. Louvre.

CHAPTER IV

1. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 258.
2. Palmer, *Molière*, 46.

3. Mantzius, Karl, *History of Theatrical Art*, IV, 42.
4. Molière, *Le Misanthrope*, II, v, 711f.
5. Lucretius, *De rerum natura*, IV, 1155f.
6. Martin, I, 100; Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 95-97.
7. Palmer, 59.
8. Voltaire, *Life of Molière*, in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 628.
9. Palmer, 147.
10. *Les Précieuses ridicules*, scene iv, in Molière, *Plays*, Everyman's Library ed.
11. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, III, 271.
12. Palmer, 145.
13. *Les Précieuses ridicules* (Everyman ed.), scene ix.
14. *L'École des maris* (Everyman), I, i.
15. *L'Impromptu de Versailles* (Everyman), I, i.
16. *L'École des femmes*, I, i.
17. *L'École des femmes* (Everyman) I, i.
18. *Critique de l'École des Femmes*, vi.
19. *Ibid.*
20. Michelet, IV, 419.
21. Molière, *Théâtre*, II, 40.
22. Palmer, 335.
23. *Tartuffe* (Everyman), I, vi.
24. *Ibid.*, III, ii.
25. III, vii.
26. IV, v.
27. *Le Festin de pierre* (Everyman), I, i.
28. *Ibid.*, III, i.
29. IV, ii.
30. Palmer, 380f.
31. As in the Everyman's Library edition.
32. *Le Festin de pierre* (Everyman), III, i.
33. Garrison, *History of Medicine*, 296.
34. *L'Amour médecin* (Everyman), II, v.
35. Palmer, 410.
36. *Le Misanthrope* (Everyman), II, i.
37. *Le Misanthrope*, I, i.
38. *Ibid.*, Classiques Larousse ed., 97-98.
39. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 126-27.
40. *L'Avare*, II, vi.
41. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), II, iv.
42. Guizot, *History of France*, IV, 560.
43. Michelet, IV, 421.
44. *Le Malade imaginaire* (Everyman), III, iii.
45. Edwards, *Idols of the French Stage*, I, 40.
46. *Ibid.*, 45.
47. *Le Bourgeois Gentilhomme* (Everyman), I, i.
48. *Critique de l'École des femmes* (Everyman), vi.
49. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 140.
50. Guérard, *Life and Death of an Ideal*, 204.

CHAPTER V

1. Martin, I, 142; Boulenger, 360; *Camb. Mod. History*, V, 152; Bourgeois, *Le Grand Siècle*, 93.
2. Guizot, *History of Civilization*, II, 231; Hauser, *Social History of Art*, I, 470.
3. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française au xviii^e siècle*, III, 404.
4. Van Laun, *History of French Literature*, II, 184.
5. *Enc. Brit.*, VI, 441b.
6. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 293; Brereton, *Racine*, 29.
7. Racine, Louis, *Mémoires sur la vie . . . de Jean Racine*, in Racine, Jean, *Oeuvres*, I, 42.
8. Brereton, 29.
9. Guizot, *History of France*, IV, 539.
10. Racine, *Andromaque*, I, iii.
11. Brereton, 154; Martin, I, 170.
12. Suetonius, *De vita Caesarum: Divus Titus*, VII, 2.
13. Racine, Bérénice, I, v.
14. Desnoiresterres, VI, 96.
15. Guizot, *France*, IV, 541.
16. Smith, Adam, *Theory of Moral Sentiments*, I, 255.
17. Racine, *Oeuvres*, I, 765.
18. Brereton, *Racine*, 245-52.
19. *Ibid.*, 19.
20. 2 Kings XI; 2 Chronicles XII.
21. Racine, *Athalie*, IV, iii.
22. Parton, *Voltaire*, I, 591; Mme. du Deffand, in Strachey, *Books and Characters*, 99; Guizot, *France*, IV, 546; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 147; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 314.
23. Guizot, *France*, IV, 548.
24. Racine, Louis, *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, p. *iii*.
25. Saint-Simon, I, 155; Guizot, *France*, IV, 548-49; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, VI, 153; Faguet, *Dix-septième Siècle*, 303.
26. Guizot, IV, 548.
27. *Ibid.*
28. Racine, L., *Mémoires*, in Racine, *Oeuvres*, I, 113.
29. Babbitt, Irving, *The Spanish Character*, 98.
30. *Brereton*, 143.
31. Sévigné, Mme. de, *Letters*, II, 210 (Mar. 16, 1672).
32. Desnoiresterres, VI, 102, 281.
33. Hume, "Of Civil Liberty," in *Essays*, 52.

34. La Fontaine, *Choix de contes*, 151.
35. *Fables*, Preface.
36. Rea, *Life of . . . Countess of La Fayette*, 230.
37. Guizot, IV, 552.
38. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 148.
39. Guizot, IV, 553.
40. Sainte-Beuve, *Port-Royal*, V. 24.
41. *Ibid.*
42. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 238.
43. Boileau, Satire I, in *Poètes français*, VII, 21.
44. Satire IX.
45. *Poètes français*, VII, 182-85; *Enc. Brit.*, III, 790d.
46. Day, *Ninon*, 211.
47. Boileau, *L'Art poétique*, I, ll. 75-76.
48. *Ibid.*, ll. 171-74.
49. IV, 59-60.
50. IV, 125-26.
51. III, 45-46.
52. III, 391-94.
53. In Fischer, *Descartes and His School*, 511.
54. Guizot, *France*, IV, 551.
55. Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, II, 261.
56. Lewis, *Splendid Century*, 268.
57. Guizot, IV, 519.
58. La Fayette, Mme. de, *La Princesse de Clèves*, 104.
59. Rea, *Countess of La Fayette*, 284.
60. Bishop, *La Rochefoucauld*, 266.
61. Boissier, *Mme. de Sévigné*, 27.
62. Sévigné, *Letters*, I, 170 (June 10, 1671).
63. Letter of Jan. 20, 1672.
64. In Boissier, 145.
65. *Ibid.*, 145-47.
66. *Letters*, Introd., *xxxviii*.
67. Letter of July 5, 1761.
68. Apr. 8, 1761.
69. Boissier, 201; Sainte-Beuve, *Port-Royal*, I, 232.
70. Apr. 10, 1671.
71. Guizot, IV, 516.
72. Bishop, *La Rochefoucauld*, 128.
73. *Moral Maxims and Reflections*, 84.
74. *Ibid.*, 150.
75. 84.
76. 122.
77. 178.
78. 11.
79. 471.
80. 9.
81. 219.
82. 82, 465.
83. In Bishop, 68.
84. *Moral Maxims*, 15.
85. *Ibid.*, 77.
86. 138.
87. 140.
88. 74.
89. 367.
90. 436.
91. Preface to the first edition.
92. In Bishop, 144.
93. *Moral Maxims*, 688.
94. *Ibid.*, 70.
95. *Ibid.*, 658-59.
96. In Sainte-Beuve, *Seventeenth Century*, I, 380.
97. *Moral Maxims*, 476.
98. Rea, *Countess of La Fayette*, 265.
99. Sainte-Beuve, *loc. cit.*
100. Faguet, *Dix-septième Siècle*, 395.
101. La Bruyère, *Characters*, p. 273. Ch. xii, 7.
102. *Ibid.*, p. 492, Ch. xii, 7.
103. E.g., Ch. xi, 35, and Ch. xvii, 28, in La Bruyère, pp. 267, 469.
104. Guizot, *France*, IV, 528.
105. Motteville, *Memoirs*, I, 150.
106. French text in Fellows and Torrey, *The Age of the Enlightenment*, 35-39.
107. Hazard, *The Critical Years*, 127.
108. Saint-Évremond, Letter to de Créqui, in King, J., *Science and Rationalism*, 26.
109. Frederick II to Voltaire, Sept. 19, 1774, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*.
110. Lewis, *Splendid Century*, 282.
111. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 1.

CHAPTER VI

1. A good example in Metropolitan Museum of Art, New York.
2. Vienna.
3. Dresden.
4. Madrid.
5. Louvre.
6. Wolf, *History of Science . . . in the XVIth and XVIIth Centuries*, 626.
7. Beard, Miriam, 305.
8. Day, Clive, *History of Commerce*, 194; Marx, *Capital*, I, 826.
9. *Camb. Mod. History*, V, 12.
10. Adam Smith, in Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 72.
11. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 44.
12. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, Ch. xx.
13. Pepys, *Diary*, May 14, 1660.
14. Hazard, *Critical Years*, 93.
15. Graetz, H., *History of the Jews*, V. 20.
16. Hazard, 88.
17. Vienna.
18. The Hague.
19. New York.
20. Baron Thyssen Collection.
21. The Hague.
22. Mather, F. J., *Western European Paint-*

ing of the Renaissance, 549.
23. Czernin Collection, Vienna.
24. The Hague.
25. Edinburgh.
26. Frick Gallery, New York.
27. London.
28. Dresden.
29. Louvre.
30. New York.
31. Washington.
32. Chicago.
33. Budapest.
34. Frick Gallery.
35. Brussels.
36. Berlin.
37. London.
38. Louvre.
39. The Hague.
40. Amsterdam.
41. Dresden.
42. New York.
43. Mather, 590.
44. In Beard, Miriam, 288.
45. In Browne, Sir Thomas, *Religio Medici*, 19.
46. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 94; Martin, *Louis XIV*, I, 333.
47. Voltaire, 93.
48. Bowen, Marjorie, *William Prince of Orange*, 196.
49. Martin, I, 347.
50. Bowen, 92.
51. *Camb. Mod. History*, V, 158.
52. Burnet, Bishop, *History of His Own Times*, 117.
53. *Camb. Mod. History*, V, 160; Acton, Lectures, 228.
54. Kronenberger, *Marlborough's Duchess*, 30.